الطبعة الثانية ٢

من مكة إلى لاس فيجاس

أطروحات نقدية في العمارة والقداسة

د. علي عبد الرءوف

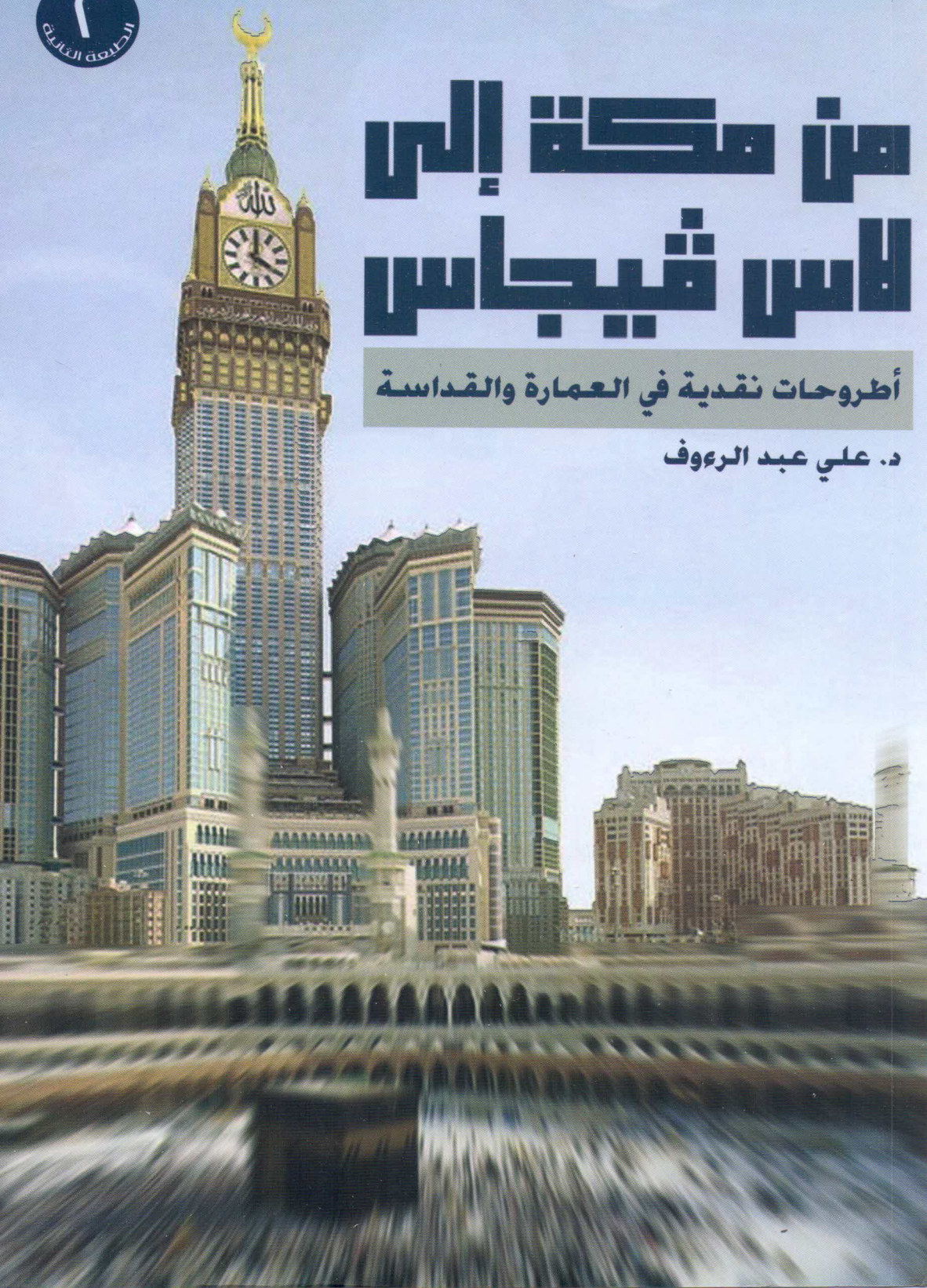

الفصل الرابع:

مكة المكرمة ولاس ڤيجاس: تنويعات على لحن واحد

«هي مدن ظاهرها رموز، مدن خفيّة لا تُرى، والغريب فيها أنّها تفتقر إلى الصلابة، إلى المادّة في تكوينها. هي مدن أشكال وأصوات وحركات، مدن تشعر بوجودها ولا تراها»

(كالفينو ٢٠١٢. ص ٨٨)

تمهيد

وضعت الفصولُ الثلاثةُ السابقةُ مكةَ المكرمة في سياقها التاريخي والجغرافي والقدسي، كما بلورت العلاقةَ الأبديةَ بين العمارة والعمران وبين القداسة والأجواء الروحانية التي يتطلع إليها الإنسان ليشبع حاجاته الروحانية والعقيدية. كما ناقشت موقع مكة من إشكالية العولمة والرغبة الجارفة في صياغة نموذج جديد لتنمية المدن الخليجية ليجد لها موقعًا على خارطة مدن العالم الجديد.

يتناول هذا الفصل الأبعاد الأكثر جدلاً في المشروع النقدي لمشروعات التنمية والتطوير حول الحرم المكي، والتي تمثل الأطروحة الأساسية للكتاب. وهنا تبرز محاولة الكتاب لتجاوز فكرة عدم ملاءمة المداخل التنموية والمناهج الاستثمارية المطبقة في مكة المكرمة لطبيعة المدينة وقيمتها المقدسة. ولكن الفصل يصوغ دراسة مقارنة بين مدينة مكة المكرمة ومدينة لاس ڤيجاس الأمريكية. هذه الدراسة المقارنة تؤكِّد التحولات الحادثة في صورة مكة المكرمة، وتفسِّر الأدوار التي يلعبها رأس المال البترولي. وكما جاء في افتتاحية الكتاب فإن عقد المقارنة بين مكة المكرمة المدينة المقدسة، وبين لاس ڤيجاس، عاصمة القمار العالمية مثَّل صدمة من الصدمات الأربع الرئيسية التي دفعتني إلى تحويل هذه المشاهَدات إلى قضايا بحثية أنتجت هذا الكتاب.

وبصورة أكثر تركيزًا فإن الفصل يُعنَي بعقد دراسة مقارنة لآليات التنمية ومخططات التعمير والتطوير التي تتبناها المدينتان. وتتم هذه الدراسة من خلال التعامل مع خمسة مبادئ تم رصدها تتجلى بوضوح في صميم العملية التنموية والتخطيطية في كلا المدينتين. بما يجعل التقارب في منهجية تطويرهما يتقارب ويتشابه، بل ويتطابق بوضوح أحيانًا تاركًا العديد من علامات الاستفهام على الأسباب التي دعت إلى هذا المستوى من التوافق والتطابق بين مدينتين تختلف كل منهما اختلافًا جذريًا عن الأخرى على عدة مستويات أهمها النشأة والتطور والهُويَّة.

والخمسة المبادئ أو العوامل التي تَنسِج بوضوح طبيعةَ التشابه المثير للتساؤل والدهشة بين المدينتين هي:

أولاً: العوامل التي تتضمن إشكالية القيم العقارية أو بالأحرى القيم الأراضي غير المسبوقة في باقي أنحاء العالم.

ثانيًا: منطق هدم المشروعات واستبدالها، واتباع المدينتين لنمط خاص من حيث التسارع على هدم ما بُني حديثًا واستبداله بما هو أكثر حداثة وجلبًا للأرباح الطائلة، مهما كانت فداحة الخسائر التي تولدها أعمال الهدم.

وثالثًا: مفاهيم التوجه للإبهار والمقاييس الضخمة في العمارة والعمران.

أما العامل الرابع: فهو سيطرة الأبراج والتنمية الرأسية على الصورة البنائية في المدينتين.

وأخيرًا: فكرة التعامل مع المقدس، إما باستحضاره أو بالمساعدة على إحضاره، والإساءة البالغة لقيمه وقيمته. إن التطابق في الأفكار التنموية والمفاهيم الاستثمارية بين مدينتين تختلفان جذريًا في رسالة كل منهما، يدق ناقوس الإنذار لما يمكن أن تصل إليه حال مكة المكرمة؛ قبلة الملايين من المسلمين.

في فهم مرجعيات التنمية، قصة مدينتين

دعنا نبدأ التحليل المقارن برصد التشابهات والتطابقات بين الظاهرتين التنمويتين في المدينتين مكة المكرمة ولاس ڤيجاس، والتي يمكن بلورتها فيما يلي:

القيمة العقارية والدورة الاستثمارية

تتفق مدينتا مكة و لاس ڤيجاس في أنهما تشكّلان المنطقتين الأكثر قيمة، في العالم بأسره، من حيث متوسط أسعار الأراضي، فقد أوضح (أسامة البار) أمين العاصمة المقدسة، أن أعلى سعر للعقارات في مكة المكرمة، كان للأراضي القريبة جداً من المسجد الحرام، وذلك كان في مشروع توسعة خادم الحرمين الشريفين للحرم المكي الشريف، حيث بلغ سعرها ٥٥ ألف ريال سعودي للمتر المربع، بما يعادل ١٨ ألف دولار للقدم المربع، وهو أعلى الأسعار على مستوى العالم. ويعني هذا أيضاً أن سعر المتر المربع يبلغ قرابة مائتي ألف دولار، وهو بالقطع الأعلى في الشرق الأوسط، بل إنه بالقطع أعلى سعر لمتر أرض فضاء في العالم بأسره. أما مدينة لاس ڤيجاس فتنفرد باقترابها من الأرقام القياسية التي تحققها أراضي البناء والعقارات المحيطة بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام. فتبعاً لبيانات عدة مؤسسات بحثية واستثمارية متخصصة في الاستثمار العقاري فإن سعر المتر بلغ قرابة ٨٥٠٠ دولار أمريكي. و ينطبق هذا الرقم على قطع الأراضي والعقارات الواقعة مباشرة للمحور الرئيسي لمدينة لاس ڤيجاس Las Vegas City Strip، وهي المنطقة التي تقع بها المشروعات الضخمة ذوات بلايين الدولارات والتي تضم أفخم كازينوهات القمار بالعالم بفنادقها الأسطورية.

الذي يسترعي الانتباه في حالة مدينة لاس ڤيجاس أن أسعار العقار تتعرض للتغير، وأحياناً للهبوط، مثل ما حدث، بتسارع غير مسبوق، بعد الأزمة الائتمانية المالية العالمية عام ٢٠٠٨. تلك الأزمة التي ألقت بظلالها على عدة مشروعات عملاقة تُطِلّ على المحور الرئيسي للمدينة أو ممر الترفيه الأول في العالم (Resort Corridor) مما أدي إلى تأجيلها أو إيقافها تماماً. كما أن هذه الأزمة المالية أنقصت معدلات السائحين الذين يتدفقون على مدار العام إلى المدينة وأثرت على معدلات إنفاقهم. هؤلاء الزوّار أو السائحون يمثلون العمود الفقري لنمو المدينة وانتعاش مشروعاتها وقيم عقاراتها.

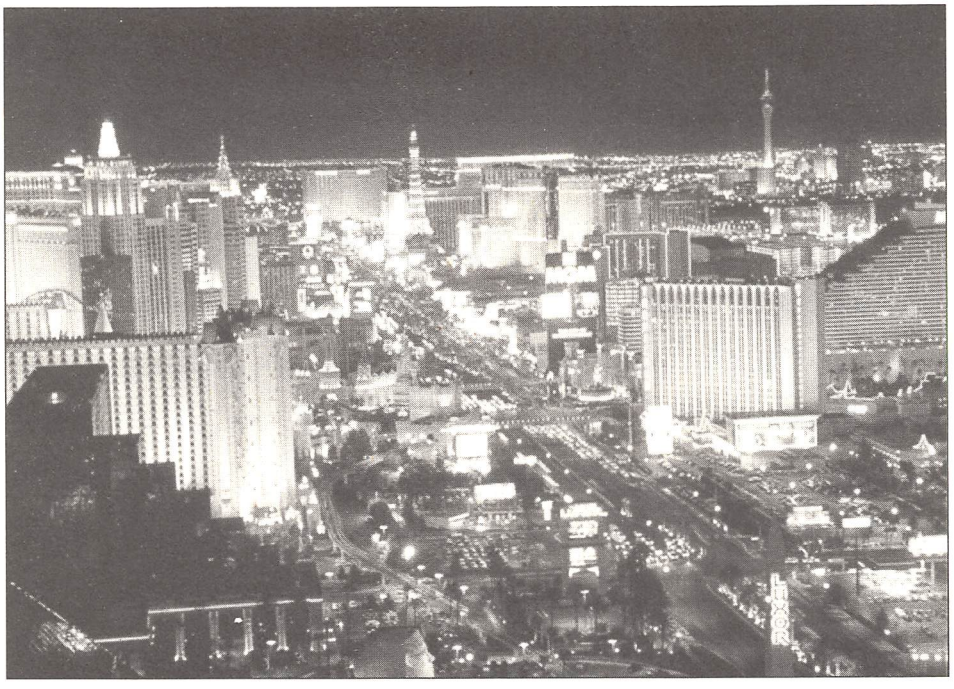

النمو المبهر على محور مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي

قد يكون من المفهوم حقيقة الارتفاع الخيالي في أسعار قطع الأراضي المطلة على محور مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي. فكل قطعة أرض هي في الواقع إمكانية استثمارية هائلة بها أعلى الضمانات لتحقيق الربح الوفير والسريع. والتشريح المعماري لكل هذه المشروعات يكاد يكون متطابقًا، فالأدوار الأولي تشغلها صالات القمار بأنواعها المختلفة يتوافق معها المجمعات التجارية وقاعات العروض. بينما تستغل الأدوار العليا في الاستعمالات الفندقية التي تستقبل الأثرياء والمغامرين ومدمني الأدرينالين الذي يثيره وقع فيشات القمار ودورات عجلة لعبة الروليت الشهيرة.

وعندما نلحظ نفس التوجه الاستثماري تتبناه المدينة المقدسة مكة المكرمة، يتبلور السؤال الجوهري: لماذا تشترك هاتان البقعتان المتناقضتان في هذه الصفة؟ الأرقام والإحصاءات توضح أن العائد المتوقع من المتر المربع في المنطقتين يقدم تفسيراً كاملاً ومقنعًا للارتفاع المذهل في أسعار الأراضي بالمنطقتين. فقطعة الأرض تعني في لاس

ڤيجاس تطوير فندق جديد للقمار أو بالأحرى ماكينة لتوليد البلايين. بينما تعني في مكة فندقًا له إطلالة «فريدة»، من حجراته وأجنحته، على الحرم المكي، كما تشير الحملات الإعلانية لشركات العقار المطوِّرة للأراضي المتاخمة للحرم، وبالتالي يصبح أيضًا ماكينة لتوليد البلايين. حيث تصل أسعار الوحدات العقارية وإيجارات الغرف الفندقية وعقود استغلال المسطحات التجارية في الأبراج المحيطة بالحرم المكي، إلى أسعار غير مسبوقة إقليميًا أو عالميًا. إن دورة الأرباح التي يمكن توليدها من الاستثمار العقاري في المنطقتين في خلال عام واحد، لا يوجد لها أي مثيل في كل نطاقات الاستثمار العقاري من موسكو وبكين إلى برلين ولندن وباريس مروراً بالعواصم العربية. حتى في إمارة دبي الواثبة بخطوات واسعة نحو التحديث، فإن متوسط أسعار الأراضي في شارعها الرئيسي المعروف باسم شارع الشيخ زايد تبلغ ٥٥٠٠ دولار للمتر المربع وذلك للأراضي ذات التميز والمجاورة للمشروعات الهامة على امتداد الشارع.

الهدم هو الحل: نموذج البلدوزر في التنمية

تشترك المدينتان، أو بالأحرى منطقتا الاستثمار العقاري بهما، اشتراكًا لافتًا في مفهوم حاكم لمنطق التنمية، وهو أيضًا مرتبط بالنقطة الأولى: القيمة العقارية، وهذا المفهوم يمكن تلخيصه في أن الحل المثالي للتنمية هو الهدم ثم الهدم ثم الهدم. أو اتباع «نموذج البلدوزر في البناء»، والذي يعتمد على إزالة كل ما هو قائم والتمهيد لبناء الجديد والمبهر. من هذا المنطلق فإن تتبع المشروعات المحيطة بالحرم أو المشروعات المحيطة بشارع مدينة لاس ڤيجاس الرئيسي، يوضح جليًا ظاهرة تكرار هدم مشروعات عملاقة لم يمرّ على بنائها سنوات معدودة تمهيداً لبناء مشروعات أكثر ضخامة وبالتالي أكثر ربحًا وإدراراً لملايين الدولارات. فعلى سبيل المثال فإن حوالي ٧٠٠٠ من الوحدات العقارية تم هدمها في مكة المكرمة فقط في عام (٢٠١٢م) لإفساح المجال أمام أعمال التوسيع للمسجد الحرام والتنمية المستقبلية للمدينة المقدسة بما فيها من مواقع تاريخية ومقدسة كما طرحنا سابقًا. ومفهوم الهدم هنا وثيق الصلة بالقيم العقارية غير المسبوقة في كلتا المنطقتين. الهدم هنا يعني أن الدورة الحياتية للمبني محدودة للغاية. وقد أتاحت المتغيرات التقنية والطاقات الاستيعابية المرغوبة أو مرونة القوانين الدائمة،

أو انتصار النفوذ المساند للرغبة في مزيد من الأرباح الأسطورية، أتاحت فرصًا ضخمة لهدم المباني والمشروعات واستبدالها بمعدلات متسارعة، غير قابلة للاستيعاب.

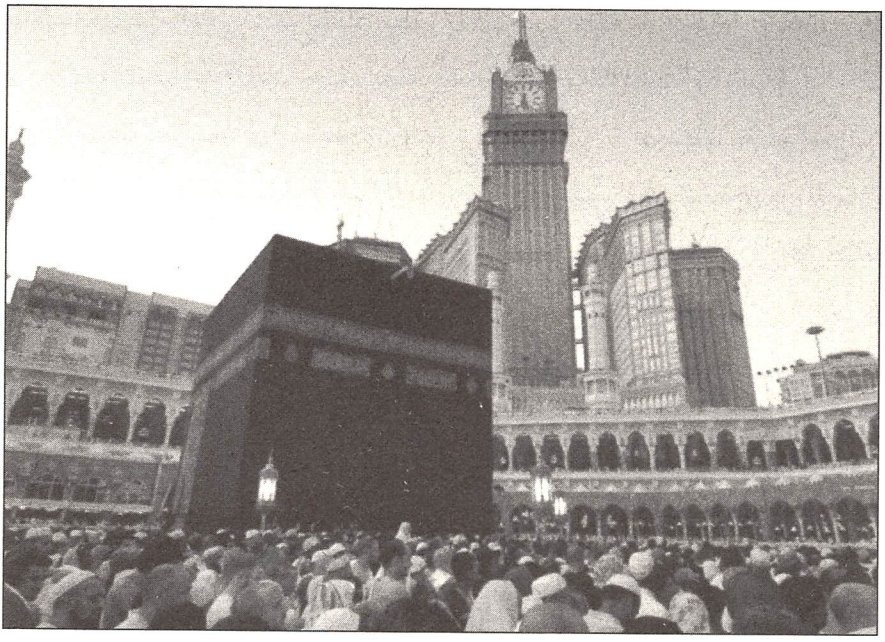

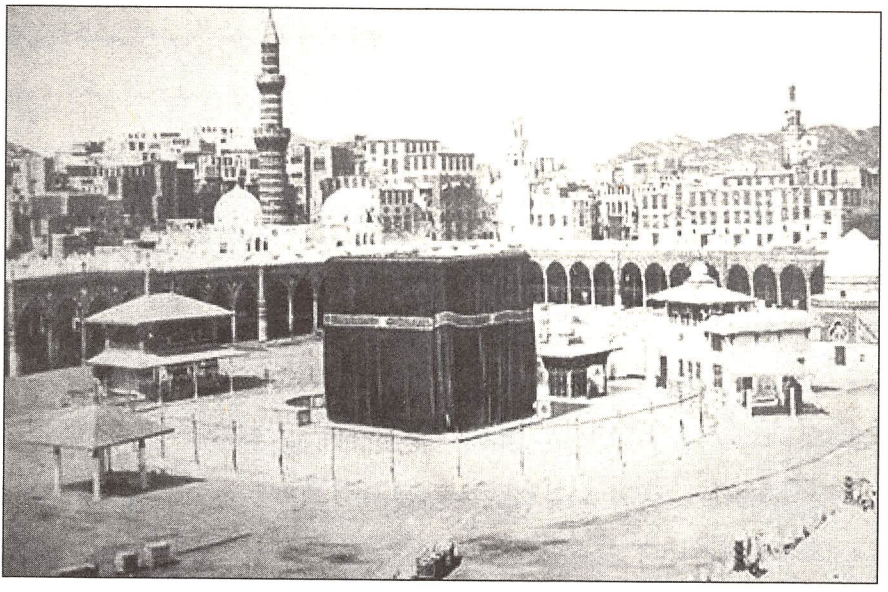

جموع المسلمين تطوف البيت الحرام بينما أبراج البيت العملاقة تطل بحجمها الأسطوري على صحن الكعبة، والصورة المقابلة توضح الحرم عام ١٨٨٠م.

ما يعنينا هنا في هذا السياق، هو علاقة ما يحدث من تنمية حول الحرم المكي بمنطق احترام البيئة بمفهومها الشمولي، والبنية المستدامة بأبعادها المتعددة والمتداخلة اقتصاديًا واجتماعيًا وبيئيًا. إن القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، طرحت محاور متعددة لفهم البيئة فهمًا عميقًا ومقدسًا يجعل من الحفاظ على مواردها ليس فقط تصرفًا إنسانيًا وأخلاقيًا، ولكنه أيضًا نوع من التعبد والتقرب من الله سبحانه وتعالى. وهذا ما يتناقض تناقضًا جذريًا مع أسلوب الهدم غير المبرر الذي يستنزف الموارد ويضحي بالكثير من القيم التراثية والتاريخية.

مشروع التطوير البالغ مساحته قرابة نصف مليون متر مربع، يجري بناؤه لاستيعاب ١,٢ مليون حاج إضافي، وبالتالي يتحول «المسجد الحرام» إلى أكبر منشأة دينية في العالم. ولكن «مؤسسة التراث الإسلامي» Islamic Heritage Research Foundation قامت بتجميع قائمة بالمواقع التاريخية الرئيسية التي يعتقدون أنها هي الآن في خطر من التطوير المستمر لمكة المكرمة، بما في ذلك الأقسام العثمانية والعباسية القديمة من «المسجد الحرام»، والبيت الذي وُلد النبي ﷺ كما ذكرنا سالفًا وبيت عمه حمزة بن عبد المطلب. فقد أصبحت الآثار العثمانية القديمة في المسجد الحرام بمكة، بالمملكة العربية السعودية، جزءًا من معارك تدور رحاها بين من يطالبون بالحفاظ على الآثار التاريخية للمدينة، وبين السلطات التي تدفع نحو عمليات التوسعة وتطوير أماكن العبادة. فهذا الأثر العثماني الذي يعود إلى القرن السابع عشر، وأحد أقدم الأجزاء المكوّنة للمسجد الحرام، ستتم إزالته كجزء من عمليات التوسعة التي يشهدها المسجد لزيادة عدد المصلين فيه.

اتهم (عرفان العلوي)، مؤرخ سعودي مقيم في لندن ورئيس مؤسسة التراث الإسلامي التي تعمل على حماية المواقع التاريخية في السعودية، اتهم السلطات السعودية بالتسبب فيما أسماه «التخريب الثقافي» للمدينة، مستندًا إلى أن أجزاء كبيرة ومهمة من الطابع المعماري لمكة والمدينة تضيع حاليًا بسبب عمليات الصيانة والتوسعة. غير أن (العلوي) أكد وجود طريقة أفضل للتعامل مع الموضوع، وذكر: «أنا لا أقف ضد توسيع المسجد الحرام، ولكن يمكنهم القيام بذلك دون تدمير الجوانب

الأثرية والتاريخية للمكان، ولكن من الواضح أن السلطات السعودية غير مهتمة لهذا الجانب أبدًا».

وقال (العلوي) إن التهديدات التي تواجهها المساجد الأثرية تضاف إلى قضية تدمير المناطق التاريخية في السعودية.

من جهة أخرى، صرحت (مجموعة بن لادن)، المسئولة عن عمليات التوسعة، على لسان مدير المشروع (محمد جمعة)، أن المشروع الجديد يهدف إلى توفير مناطق إضافية للصلاة، من أجل منع التدافع الناجم عن أعداد الحجَّاج والمعتمرين الكبيرة. وهذا التصريح مطابق كما سنشير لاحقًا إلى ما تقدمه السلطات السعودية من تفسير لكل ما يحدث داخل الحرم المكي وحوله، وهو استقبال عدد أكبر من الحجَّاج والمعتمرين وتسهيل تأديتهم للفريضة المقدسة.

الجدير بالذكر هنا أن تدمير وإزالة هذا التراث يخلق رفضًا إقليميًا وعالميًا، خاصة من الدول والثقافات التي ساهمت في صياغة هذا التراث على مدار حقَب تاريخية سالفة. وعلى رأسها السلطات التركية التي تعبر عن مجد الإمبراطورية العثمانية التي قدمت الكثير للحجاج وللأراضي المقدسة وحمايتها كما ناقشنا في الفصل الأول. فقد أعربت السلطات التركية عن قلقها من إزالة هذه الآثار، وأكدت وزارة الخارجية التركية أنها تبحث هذا الأمر مع السلطات السعودية منذ عام ٢٠٠١. وقد تم توثيق اعتراض إدارة المتاحف والمرافق الثقافية التركية في بيان عُرض في شبكة الأخبار العالمية CNN، تم فيه التأكيد على أهمية حماية تلك الآثار، التي تَعيد للأذهان وضع الدولة العثمانية في تلك الفترة، وتوثق حقبة تاريخية لا يمكن نسيانها. وحاولت (CNN) الاتصال بوزارة الشؤون الإسلامية السعودية، وعدد من المسئولين بالمملكة، ومن بينهم أمير منطقة مكة والبلدية، والسفارة السعودية في لندن، إلا أنها لم تنجح في الحصول على أي رد من هذه الجهات تبعًا لما هو موثّق. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تصطدم فيها السلطات السعودية مع تركيا بسبب إزالة مبان تعود للعهد العثماني، والتي تعتبرها تركيا جزءًا من التعاون الثقافي التاريخي. ففي عامً ٢٠٠٢، عبّرت أنقرة عن غضبها لتدمير قلعة أجياد العثمانية، التي بُنيت على أحد الجبال المُطلّة على الكعبة في نهاية القرن الثامن عشر، وعلى سبيل المثال استنكر (سامي عنقاوي) هدم منزل السيدة خديجة رضي الله عنها زوج

الرسول ﷺ، ليعطي مساحة كافية لمشروع مغاسل عامة. وثمت حالة أخرى صارخة في منزل الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رفيق رسول الله الذي هُدم منزله ليكون هو الموقع الذي بُني عليه فندق الهيلتون. هذا المستوى من التعامل مع المدنَ المقدسة ومحتوياتها غير القابلة لَلاستعادة يصفه (عنقاوي) بأنه حوَّل الحرم المقدس إلى آلة صمّاء، مدينة لا تاريخ لها ولا تراث ولا هُويَّة ولا حتى بيئة طبيعية، فقد محوا حتى الجبال والتلال.

وكما ذُكر سابقًا فإن التبرير الدائم الذي تسوقه السلطات السعودية لعملية الهدم والإحلال المستمرة، هو الرغبة في استيعاب الأعداد المتزايدة من الراغبين في أداء مناسك الحج. الأكيد أن هذا التبرير يتوافق مع لقب الملك وهو خادم الحرمين الشريفين وهو اللقب الذي يعطي الإيحاء الكامل بأن الملك وكل سلطاته تتفرغ لخدمة الحرمين الشريفين، ومن ثَمَّ تسهيل مهمة المسلمين القادمين إليهما. وأما ما لا يمكن إعلانه والذي يصرح كثير من المواطنين والمخطِّطين وبعض موظفي الحكومة السعودية عند اطمئنانهم لعدم نشر أسمائهم، هو أن الدافع وراء كل هذه العمليات هو دافع مالي استثماري بحت. إنها الرغبة في تعظيم الربح من أكثر مناطق الاستثمار العقاري في العالم قيمة. لقد تم تفسير خدمة الإسلام والحجيج تفسيراً يمكِّن من تعظيم الدورة المالية والربحية والاستثمارية للنطاقات العقارية حول الحرم، مع تغليفها الدائم بالغلاف الذي يثير العواطف، ويدغدغ المشاعر: خدمة زوار بيت الله.

مواكب الحجاج تتحرك وسط أنقاض أعمال هدم لا تنتهي
لتفسح المجال لمزيد من المباني العملاقة حول الحرم المكي.

في المدينتين؛ مكة المكرمة و لاس ڤيجاس، وبهذه الفلسفة الاقتصادية الفريدة، فإن أي طرح له علاقة بالاستدامة والاستمرارية وتوفير الموارد والحرص على مستقبل كوكب الأرض المهدد، لا يمكن قبوله أو استيعابه. فالهدم وبناء الأكبر والأضخم سيحقق الربح الأعلى والأوفر، وفي إطار هذه المعادلة تتضاءل، بل تنعدم فرص الحوار عن جدوى وأهمية وضرورة التنمية المستدامة. إجهاض الحديث عن أفكار الاستدامة في مدينة الخطيئة قد يكون مقبولاً ولكنه يصبح جريمة في البقعة الطاهرة التي ترمز إلى كل قيم الإسلام ومنها العقلانية والتواضع الابتعاد عن الإسراف والمبالغة، والتساوي بين الناس.

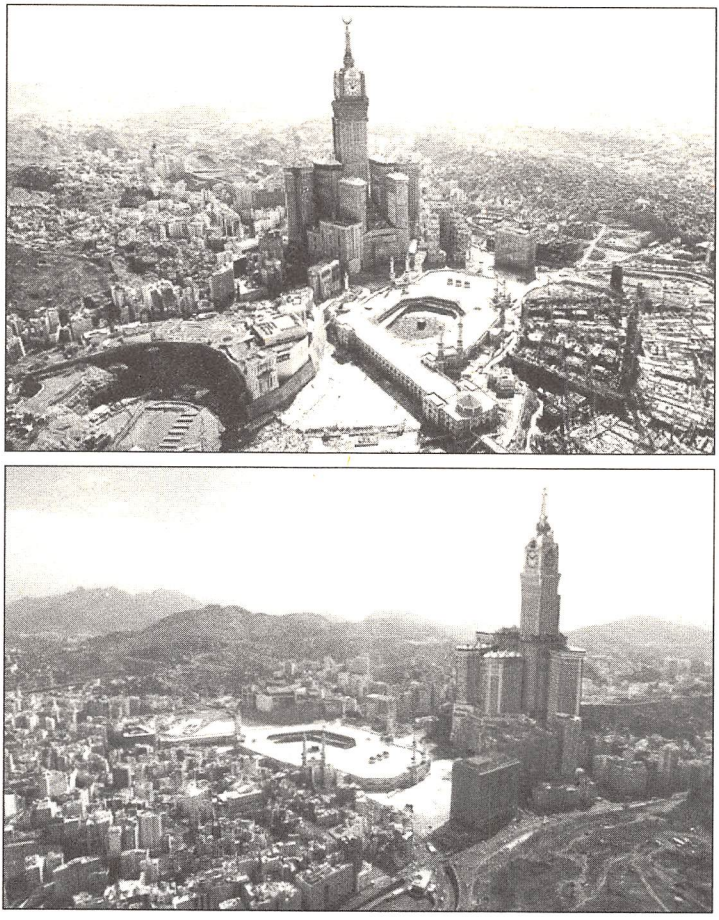

لقطات متعددة الزوايا توضح حجم الجريمة العمرانية والمعمارية والأخلاقية المتمثلة في مشروع أبراج البيت على حافة الكعبة، بيت الله الحرام.

الانبهار المبهر والبقاء للأضخم

في عام (١٩٧٢م) نشر المعماري والعمراني الكبير (روبرت فينتوري) كتابه الشهير «التعلّم من لاس ڤيجاس». خلق هذا الكتاب حواراً عالمياً دعى المعماريين والعمرانيين إلى استقبال أكثر تواضعاً لأفكار العامة والبسطاء، والتنازل قليلاً عن بطولة المعماري والعمراني وقيادته المنفردة لمنظومة البناء والعمران. واعتمد (فنتوري) على حالة لاس ڤيجاس لأنها بعلاماتها ومبانيها وزخارفها ولوحاتها الإعلانية وأضوائها الصاخبة تقدم نموذجاً فريداً لاستقطاب الإنسان ولفت نظره وإدماجه في تجربة إدراكية وحسية وبصرية فريدة. ومنذ تاريخ نشر الكتاب وحتى اليوم، ومدينة لاس ڤيجاس تقدم دروساً لمدن العالم التي ترفع شعار الإبهار ولفت الأنظار وخلق شخصية تسويقية تجذب إليها السائحين ورجال الأعمال. لقد حاولت مدن كثيرة في العالم تقليد لاس ڤيجاس على أمل أن تضمن لنفسها موقعاً على المسرح العالمي، ومن أهم المدن العربية التي رأت في لاس ڤيجاس الإبهار نموذجاً؛ مدينة دبي. ملامح الإبهار «اللاسڤيجاسي» في مجال العمارة والعمران تتعدد وأهمها: المقياس العملاق والقصة الأسطورية والتركيبة الأيقونية وتزييف الصادق وتصديق المزيف. ولذا قد يكون من الواجب تعقب مدى ظهور وتواجد هذه الملامح في عمارة وعمران مكة المكرمة كما هي جلية في مدينة لاس ڤيجاس.

عندما تتأمل فنادق مدينة لاس ڤيجاس، ترى مستوى من الضخامة والعملقة تستدعي من ذاكرتك صوراً لوحوش أسطورية ومباني ألف ليلة وليلة وحمامات روما وساحات أثينا، وحتى أهرامات الفراعنة. وحينما توجه نظرك من صحن الكعبة إلى العمران المحيط بك فلا يدهشك تطابق المشاعر وثبات التجربة البصرية، فأنت مرة أخرى محوط ومحاصر بالعمالقة التي تتناسى تماماً بمن تحيط، وما هي قداسة وروحانية من تتطاول عليه بمكعباتها الخرسانية القبيحة. مدينة لاس ڤيجاس أيضاً، مدينة الخطيئة تتفوق في التلاعب بالصادق والمزيف فتبني الهرم الأكبر وتضع أمامه أبو الهول شامخاً، ثم تحفر النيل وتسمح بتدفق مياهه في مداخل الفندق وساحاته المختلفة. في مكة أيضاً انشغلنا بالمزيف والأسطوري، فساعة أبراج البيت يجب أن تحطِّم أسطورة ساعة بيج بن الشهيرة بالعاصمة الإنجليزية لندن، لتكون خمسة او ستة أضعاف حجم

الأخيرة. وحجم المبنى يجب أن يكون الأضخم في العالم وارتفاعه يجب أن يكون الأعلى في العالم. المثير أننا في خضم نشوتنا بهذه الانجازات الأسطورية العملاقة الضخمة حول الكعبة لم نسأل أنفسنا السؤال الأكثر صدقًا: ما معنى كل هذا وأنا في بيت الله؟ ما معنى كل هذا وأنا في أقصى لحظات ضعفي وقلة حيلتي لا يسترني من العراء إلا قطعة قماش بيضاء يلبسها الغني والفقير على السواء. لقد توارت المآذن في خجل بعدما أصبحت الفنادق الفاخرة شاهقة الارتفاع هي الأكثر تأثيرًا في تشكيل صورة المدينة المقدسة، وهو ما خلق تناقضًا جوهريًا مع الطبيعة الروحانية للمدينة

مكة المكرمة للأغنياء فقط: انتصار الطابع «اللاسڤيجاسي» للمدينة المقدسة

كيف تتحقق المساواة بين المسلمين والتيقّن من أنه لا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى، كما يشير القرآن والسنة، بينما حين ينظر الحاج أو المعتمر عاليًا يرى من يُطلّ عليه وعلى الكعبة من نافذة المبنى الأسطوري، وهو يرتشف العصير البارد الطازج وبجواره زوجته مستمتعة بنعمة الغنى والثراء والقدرة على شراء حجرة في أبراج البيت التي يتراوح سعر الاستوديو أو الغرفة الواحدة بها من ٦٥٠٠٠٠ إلى المليون دولار أمريكي. قد يكون هذا مقبولاً في مناطق الاستثمار السياحي الترفيهي في العالم كله بما في ذلك لاس ڤيجاس. فقطاع السياحة دائمًا ما يمجد الأغنى والأكثر قدرة على الإنفاق وتتفنن العقول في إيجاد فرص الإنفاق والترفية في كل البقاع السياحية المتميزة في العالم بآسره من البهاما وهاواي إلى المالديف، ومن فلوريدا إلى مايوركا. ولكن التجارب الدينية الروحانية تختلف أو بالأحرى يجب أن تختلف حتى لو أُدرِجت تحت تصنيف السياحة وسُمِّيت «سياحة دينية».

غرفة بمنظر خلاب: مشهد للحاج الثري فقط

حتى موظفي الاستقبال في الفنادق المطلة على الحرم، وخاصة (فيرمونت أبراج البيت) مُدرَّبين لإسعادك، ونقل بُشرى فتوى أن الصلاة في غرف وأجنحة الفندق تعادل ثواب الصلاة في الحرم المكي، بدون مغادرة الغرفة أو الجناح حيث يكفي فقط التوجه إلى القبلة والنظر من أعلى إلى الكعبة الشريفة، من خلال النوافذ البلورية الممتدة من الأرض إلى السقف، هذا المشهد الدرامي أسفل الفندق. الواقع أن هذا

المبنى بالقطع غيَّر، وللأبد، تجربة الحج والعمرة لكل إنسان مسلم أكرمه الله سبحانه وتعالى بزيارة أم القرى: مكة المكرمة وحرمها الشريف ومسجدها الحرام وكعبة المسلمين.

«برج مكّة كلوك رويال، فندق فيرمونت أحد أبراج البيت السبعة، يطاول أبراج العالم وصولاً إلى ٥٧٧ متراً، ويضم وحدات إعمار رزيدينسز بفيرمونت مكة. فإضافة لاحتوائه على باقة من المطاعم وقاعات الاجتماعات والمناسبات، تتألق قمة البرج بساعة تعلّم المسلمين بأوقات الصلاة، إذ يصل طولها إلى ٤٠ متراً، ما يشكّل ٥ أضعاف حجم ساعة بيج بين الشهيرة في لندن».

(من الكتيب الدعائي المشروع، ص ٣٠)

موقع الأبراج العملاقة جنوب الحرم ثم المنطقة الجديدة المخصصة لأعمال التوسعة والأبراج الجديدة شمال الحرم.

ما يلفت النظر في هذا الوصف الدعائي للمشروع ليس فقط فكرة التوجه الرأسي والمنافسة غير المبررة مع أطول أبراج العالم، والتأكيد على التفوق على ساعة بيج بين في العاصمة البريطانية لندن تفوقًا حجميًا. تتبلور هنا بصورة واضحة، قضية التنمية حول الكعبة الشريفة وحرمها المكي، وتبرز التساؤلات: لماذا يصبح التنافس مع أبراج العالم والتفوق على أطوالها إنجازًا للتنمية المحيطة بالحرم المكي؟ لماذا يصبح التفوق الحجمي على ساعة بيج بين التي تمثل أحد أهم العلامات المميزة للمملكة البريطانية مرجعية للتفوق والتميز في صحن الكعبة؟

احتضار أم استحضار المقدس

«المدن مثل الأحلام مصنوعة من الرغبات والمخاوف، حتى لو كان خيط خطابهم الحاكم سريًا، قواعدها منافية للعقل، رسائلها البصرية المخادعة، وكل شيء يخفي شيئا آخر».

(إيتالو كالفينو، المدن الخفية)

من اللافت للنظر في التشابهات الجدلية بين مدينتي مكة ولاس ڤيجاس، الاشتراك في صياغة علاقة خاصة مع المقدس والأسطوري، فالمدينة الأولى تملكه ولكنها تفقده بقرارات يحكمها الفكر الرأسمالي ورغبة متزايدة في أرباح غير مسبوقة من نبع حجَّاج لا ينضب. فعلى مستوى مكة المكرمة، فإن الحرم المكي هو أكثر الأماكن المقدسة في العالم استقبالاً للزائرين، ففي موسم الحج تستقبل مدينة مكة ما لا يقل عن ثلاثة ملايين حاج. بينما يتجاوز عدد الحجّاج والزوار والمعتمرين على مدار العام أكثر من عشرة ملايين يزورون الحرم المكي سنويًا تبعًا لإحصاءات وزارة الحج بالمملكة العربية السعودية. ومع كل هذا تتلاشى التجربة الروحانية أمام سطوة المال وفشل سياسة فهم المكان واستيعابه كمكان وحيّز للتجارب الروحانية وليس لأعلى معدلات تدوير رءوس الأموال في العالم.

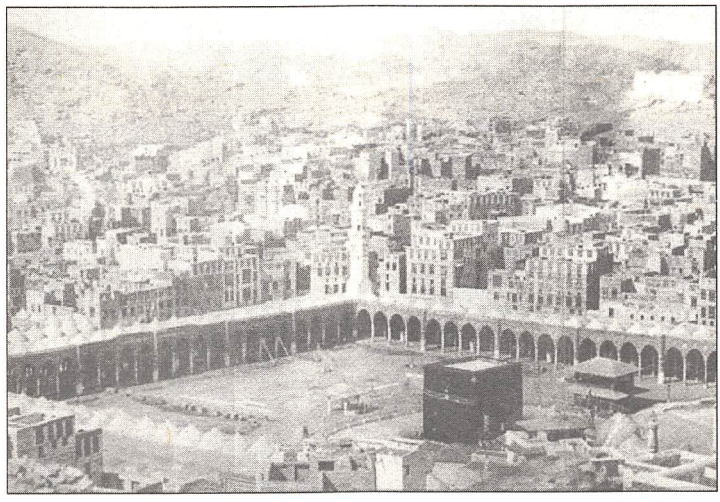

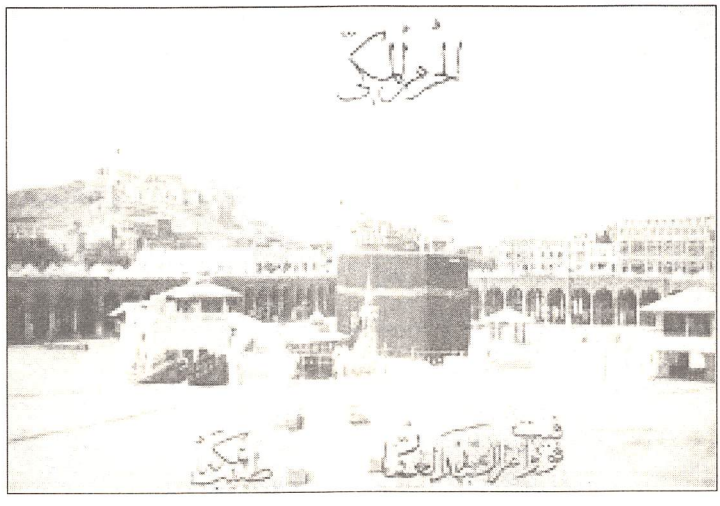

لقطات فوتوغرافية تاريخية تؤكد وتوثق القيمة المكانية والروحانية لبيت الله الحرام عندما كانت الكعبة بؤرة الاهتمام.

وكما أوضحت الدراسة في الفصل السابق، فإن احتضار المقدس لا يمثل فقط استعارة بلاغية للتعبير عن قسوة الواقع، ولكنه تعبير عن حقيقة ما يحدث من اختفاء لمواقع وعمران وعمارة شهدت فصولاً من أكثر فصول العقيدة الإسلامية قداسة. فأجواء القداسة والروحانية تتضاءل مع الهجمة الاستثمارية على محيط الحرم المكي.

وأدَّي ذلك إلى أن كنوزًا حقيقية لها قيمتها المقدسة مثل بيت زوجة الرسول ﷺ وعائلته وأصحابه أزيلَت بغير رجعة ولم يعد لها أي أثر مادي في الذاكرة المبنية للمدينة .

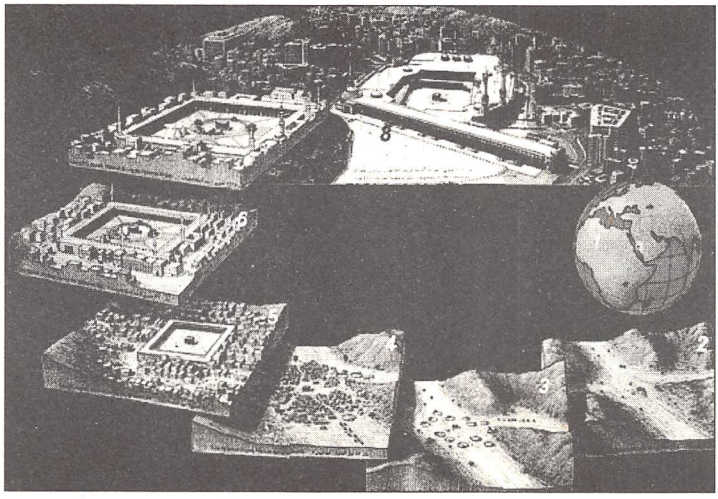

دياجرام توثيقي يوضح التطور التاريخي لأعمال وتطوير الحرم المكي قبل مرحلة التعلم من لاس ڤيجاس والتوجه إلى بناء الأعلى والأضخم والأغلى.

والمدينة الثانية، لاس ڤيجاس، تستحضر المقدس وتوثقه وتعيد صياغته بشكل زائف مروّج . فعلى صعيد مشابه فإن مدينة لاس ڤيجاس تستحضر المقدس والأسطوري الذي ينقصها، ليضفي أجواء فريدة على السياق المكاني والتجارب الفراغية التي يعيشها المقامر والزائر . تأمل ماذا يفعلون في المدينة حيث تُبنَي الأهرامات ويُنحَت أبو الهول وتُنَظَّم المصارعات في الكولوزيوم وتُفَجَّر قوارب القراصنة في ساحة فندق الميراج الشهير . وهكذا تتكامل دراما الصورة الذهنية المثيرة وينتقل زائر المدينة من فندق إلى آخر متلهفًا للأسطورة الجديدة أو للعبق المقدس الذي سيختبره في ساحات فنادق المدينة ومداخلها الرحبة قبل أن تحاصره ماكينات وطاولات صالات القمار صناعية الإضاءة والتهوية التي تتفنن في إسقاط الزمن وتَفصل الإنسان فصلاً كاملاً عن إيقاع الحياة ليصبح مشدودًا فقط لإيقاع الفيشات وأحجار النرد المتقافزة على الطاولات الحمراء .

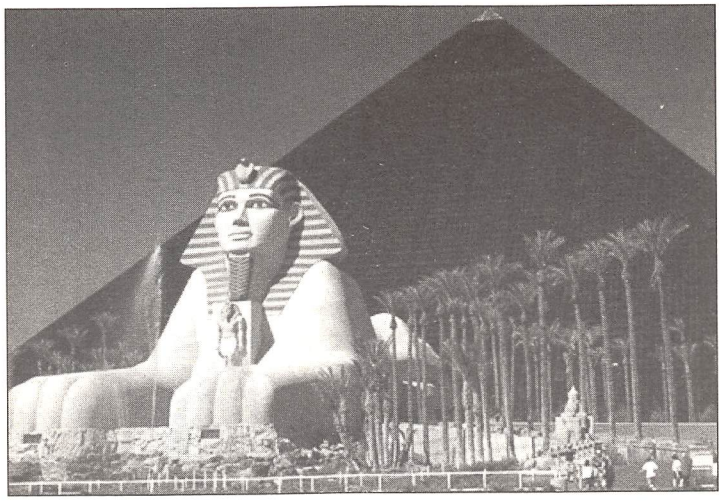

فندق الأقصر بمدينة لاس فيجاس واستدعاء مسرحي وساذج للعمارة الفرعونية لكنه مبهر للسائح البسيط الباحث عن مغامرة ومقامرة في أنحاء المدينة.

عمارة أبراج مكة العملاقة: غابة المآذن والأبراج والأوناش

يتابع الراصد البصري للتنمية في السياق المباشر المحيط الحرم المكي اندفاعًا إلى معادلة جديدة في عمران وعمارة المدينة أهم أركانها شعار أن «البرج هو الحل». ترتكز مشروعات التنمية الجديدة في مدينة مكة المكرمة على لغة بصرية وتشكيلية تتجاهل الأصول التاريخية لعمارة وعمران المدينة المقدسة وأنساق نموها وتطورها. لقد استمر الحرم المكي والكعبة الشريفة لقرون طويلة الكيان البنائي الأكثر تأثيرًا في الصورة البصرية للمدينة. فهذا تدعيم لشخصية المدينة وطابعها الروحاني والديني المقدس. أما في العقد الأخير فقد حدث تغير نوعي لم تعد معه تلك الصورة البصرية تمثل الأولوية. أصبح التوجه الرأسي وخلق حوار غير مفسر بين ناطحات السحاب الفندقية والتجارية هو المنهج الأكثر قبولاً حتى في خلال السياق الأكثر اقترابًا من الحرم المكي والكعبة الشريفة. لقد تحول الحج من رحلة بسيطة متواضعة منضبطة للخلاص والمغفرة إلى عمل تجاري استثماري يستلزم عمارة وعمران متضخم يلائم التوجه الجديد. هذا التوجه الجديد يستدعي كل أنواع التضحيات مهما كان قيمتها التاريخية والأثرية بل والمقدسة.

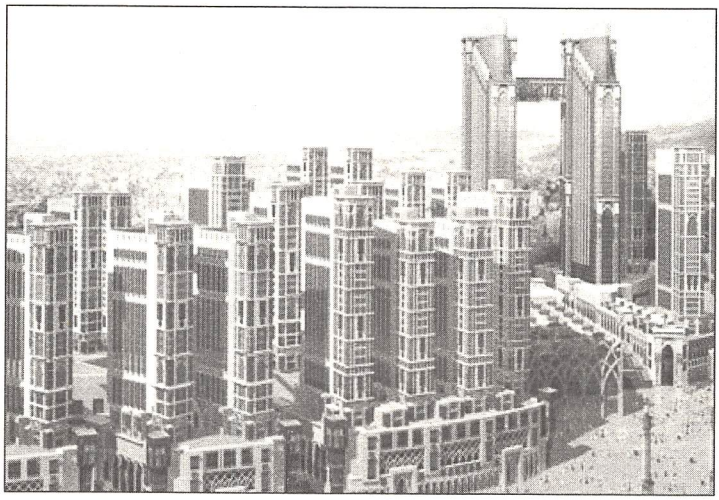

مشروع جبل عمر

ومن أهم المشروعات الواقعة في نطاق الحرم المكي، والتي تتفق جميعًا في أن المفهوم الحاكم لتنميتها هو الاندفاع الرأسي ورفع شعار «البرج هو الحل» هذا الشعار الذي أصبح يمثل مدخلاً تنمويًا وتصميميًا لازمًا في كل هذه المشروعات. منها على سبيل المثال مشروع جبل عمر الذي يقع على الحافة الغربية للمدينة. والمشروع يتسع لقرابة ١٠٠ ألف شخص في ٢٦ فندق فاخر يقبع فوق قاعدة مكوَّنة من تجمع عملاق من المحلات التجارية يصل عددها إلى أربعة ألاف محل وخمسمائة مطعم وصالة للصلاة بارتفاع ستة طوابق. اللغة المعمارية في مشروع جبل عمر مشابهة لحالة مشروع أبراج البيت وبرج الساعة فهي لغة سطحية تعتمد على مفردات معمارية وتشكيلية وزخرفيه مستهلكة مثل العقود والبانوهات المزخرفة سابقة التصنيع. لقد حوَّل المعماريون والمطوِّرون اللغة المعمارية الأصيلة التي نبعت من سياق عمراني بسيط بعبقرية، ومتضامّ بألفة، يتميز بالأفنية الداخلية المفتوحة للسماء، والمواد المحلية والشوارع إنسانية المقياس إلى مجرد شرائح زخرفيه تُلصَق على المباني لإعطاء وهم الأصالة واحترام التراث والارتباط مع التاريخ. أما مشروع الشامية، الذي يقع على الجانب الشمالي من المسجد الحرام، وهو يتكلف ١٠ بليون دولار ويهدف إلى إضافة ٤٠٠ ألف متر مربع من ساحات الصلاة

واستيعاب مليون ومائتي زائر إضافي كل عام. الصورة النهائية للمشروع وجريمة اقترابه وإطلاله على الحرم المكي، دفعت العديد من نقاد العمارة والعمران على المستوى الدولي من استنكار ما يحدث في المدينة المقدسة. فعلى سبيل المثال فإن الناقد المعماري لجريدة الجارديان البريطانية الشهيرة، (وينرايت) فَضَّل أن يطلق على المشروع لقب «صفوف خبز التوست» ساخراً ومستنكراً من النمطية الميكانيكية والتشكيل الاستاتيكي المتناقض مع أجواء المدينة المقدسة (Wainwright, 2012).

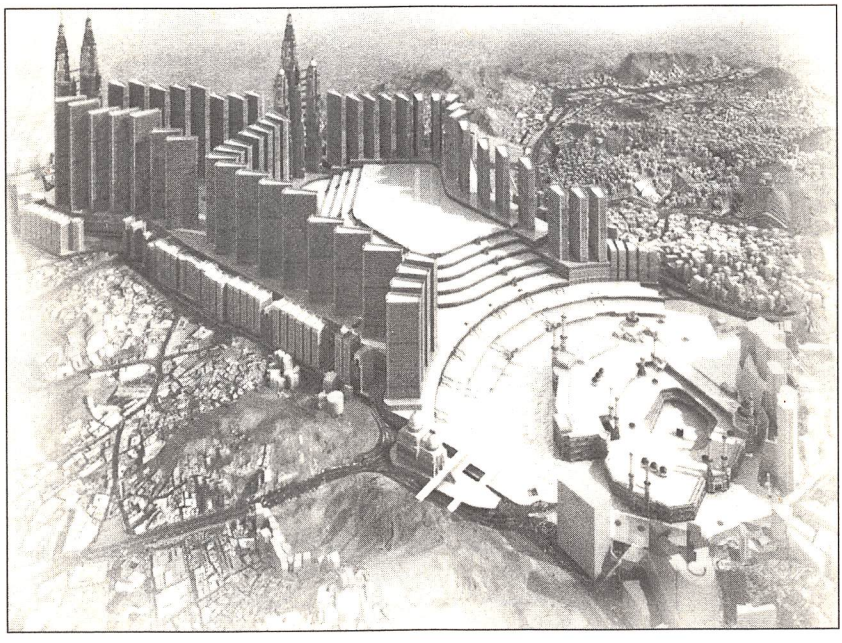

مشروع منطقة الشامية أو عمران أبراج خبز «التوست» كما وصفه ناقد صحيفة الجارديان.

وعلى الرغم من انفصال المعماري والعمراني الأجنبي عن واقع فهم الأبعاد الروحانية والمقدسة لمدينة مكة المكرمة، فإن عطاء المعماري والعمراني العربي المسلم لم يكن أكثر توفيقًا. والشكل التالي يوضح التنمية العمرانية لنفس المنطق، جبل الشامية، تبعًا للتصور الذي قدمه المعماري والمخطط العربي الشهير راسم بدران. وعلى الرغم من حساسية التصميم للنسيج العمراني، فقد سيطر التوجه الرأسي مرة أخرى على الطرح المقدَّم منه في مسابقة تطوير المنطقة.

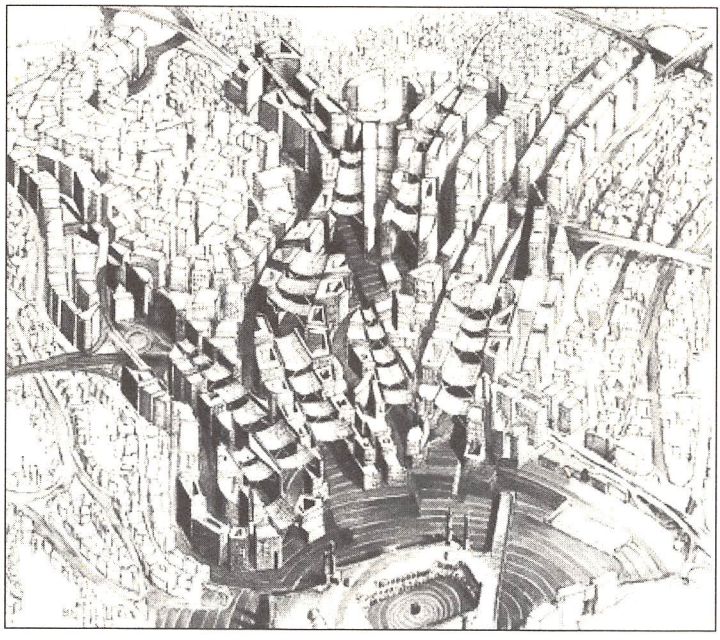

الطرح التصميمي والتخطيطي المقدَّم من المعماري راسم بدران للتنمية العمرانية بمنطقة الشامية المطِلّة على الحرم المكي.

أما ناقد جريدة النيويورك تايمز الشهيرة، (نيكولاي أوروسوف) فقد قدم تحليلاً نقديًا لما يحدث حول الحرم في الوقت الذي صَمَتَ فيه معظم أساتذة العمارة ونقاد في العالم العربي والإسلامي، إن لم يكونوا صمتوا جميعًا.

«هذا هو السخف المعماري»

"It is an Architectural Absurdity"

نيكولاي أوراوسوف، ديسمبر ٢٠١٠، (الناقد بجريدة النيويورك تايمز الامريكية) معلقًا على خبر إنشاء برج الساعة حول الحرم.

في مقاله النقدي القاسي والمثير للتساؤلات، بعنوان «مظهر جديد لمكة: العملاقة والمثيرة»، ناقش الناقد المعماري (نيكولاي أوراوسوف)، الناقد بجريدة النيويورك تايمز الأمريكية، مشروع أبراج البيت وخاصة برج الساعة الجديد. المشروع عبارة عن المبنى يحتوي على سوق تجاري عملاق وفندق يحتوي على ٨٠٠ غرفة وصالة صلاة تَسَعُ

آلاف المصلين كما سنفصل لاحقًا. إن هذا السخف المعماري، طبقًا لتعبير (أوراوسوف)، على الحافة الجنوبية للحرم المكي أقدس أراضي المسلمين لا يمكن قبوله. تقليد مسطح وساذج وعديم الذوق لبرج ساعة (بيج بن) في لندن.

التشكيل المتعملق الضخم للمشروع هو تكبير غريب ومحبط للنموذج الأصلي لبرج ساعة بيج بن وأعلى البرج وضع الهلال الإسلامي الشهير لإضفاء مسحة مصطنعة تذكّر بالماضي. برج الساعة المكية هو القطعة المركزية في مجمع المباني، المعروف باسم أبراج البيت، الذي يُعدّ واحدًا من أعلى المباني في العالم، وبالقطع هو الأعلى والأضخم حول أي موقع روحاني في كل بقاع العالم. يتكوّن البرج من مركز تجاري عملاق وفندق به ٨٠٠ غرفة، يتنوع بين الشقق الفندقية ووحدات الإقامة وكل الخدمات الراقية الملحقة. وينتهي برج الساعة بشكل الهلال رمزًا للإسلام بصورة تزيد من سذاجة الرسالة الرمزية الممزقة بين تقليد الساعة اللندنية وهلال الراية الإسلامية.

هذا المشروع، أبراج البيت، هذا البرج هو واحد من مجموعة من المشروعات العملاقة في قلب مكة، تهدف إلى توسيع الحرم ثم إحاطته بمجموعة هائلة من الأبراج السكنية والفندقية الفاخرة. فقد أعطت السلطات في مكة المكرمة الضوء الأخضر لإنشاء العشرات من الفنادق الفخمة المدارة بواسطة شركات عالمية. وإذا استمر المعدل الحالي لبناء الغرف الفندقية، فسيصل إجمالي عددها إلى ٨٠,٠٠٠ بحلول عام ٢٠٢٥.

برج الساعة الملكي في مكة ونصف دستة من الأبراج الفاخرة المحيطة به تم بناؤها على مواقع أُزيل منها كل ما عليها. هذا هو المؤلم فقد بُني البرج على أنقاض قلعة عثمانية تعود للقرن الثامن عشر قامت السلطات بالحَرم المكي وبموافقة الحكومة السعودية بإزالتها بالكامل باستخدام البلدوزرات العملاقة وفي ساعات محدودة. وللمرة الأولى يتم توجيه نقد معلن للسلطات السعودية على تبنيها هذه الرؤية التنموية التي يعتقد البعض أنها تتناقض مع الطبيعة الروحانية للمكان. وتتصاعد دراما الرفض عندما يوصف ما يحدث حول الحرم بأنه: «اتجار ببيت الله».

هذا هو الوصف الذي استخدمه المعماري والعمراني السعودي (سامي عنقاوي) خاصة، وهو يتحدث عن ملايين الدولارات التي تُدفَع لعقود الإيجار الطويلة الأجل

للوحدات السكنية القريبة من المسجد والتي تتصاعد تدريجيًا كلما اقترب الموقع من الحرم المكي، ثم تتضاعف ثلاث مرات أو أربع عندما تكون الوحدة المستأجرة تري المسجد أو تُطِلّ إطلالة مباشرة عليه.

ومن اللافت للنظر أن نفس السلطات السعودية في نهاية السبعينيات وبدايات الثمانينيات كانت أكثر حساسية في التعامل مع الحرم المكي والحرم النبوي. فكما يناقش (أوراوسوف)، فقد تم الاستفادة من التدفقات النقدية من عوائد البترول، وتم استدعاء مجموعة متميزة من المعماريين والعمرانيين شاركوا في مشروعات مباشرة تخدم الحرمين والمناسك، ومنها مدن الحجيج التي صممها المعماري الألماني الشهير (فراي أوتو) الذي استوحى تصميمها من خيام القبائل البدوية، وكان المشروع يهدف إلى استيعاب الحجيج دون التأثير على البيئة الحساسة للتلال المحيطة بالمدينة المقدسة. كذلك مشروع صالة الحج في مطار الملك (عبد العزيز) الدولي والتي صممها المكتب الأمريكي المعروف (سكيدمور)، أو (ينجز وميللر). هذا المشروع صُمِّم كشبكة مكونة من أكثر من مائتي وحدة من المظلات أو الخيام المعتمدة على نظام الكابلات الصلب والأعمدة، وهي مقسمة إلى ما يشبه قرى بدوية صغيرة في الهواء الطلق، حيث يُمكِّن الحجَّاج المسافرين من الراحة والصلاة في الظل قبل مواصلة رحلتهم. هذه المشروعات تميزت بتطلع حداثي عصري، ولكنها في الوقت ذاته استلهمت من البيئة المحلية والتقاليد السائدة، ولم تتناقض مع تعاليم الإسلام ومبادئ البساطة والتواضع والمساواة. وعلى النقيض من الأطروحات السابقة العميقة في فهمها للتحديث وتعاليم الإسلام، تأتي المشروعات الحالية لتمثل - خاصة مع برج الساعة العملاق وغيره من مشاريع التنمية الضخمة الأسطورية - مشهدًا قد يكون مثيرًا للسخرية أحيانًا، أو مستدعيًا بالقطع صورة مدينة لاس ڤيجاس. ولكنه بالقطع في كل الحالات يتناقض مع طبيعة مكان يحج إليه الملايين من كل بقاع العالم، ويتطلعون إلى تجربة روحانية قد تكون الوحيدة في كل عمرهم.

أبراج البيت واحد من أكبر مشروعات البناء التجاري في العالم. تم تمويل المشروع بصورة خاصة من نفس الشركة المطوِّرة والمقاول المنفِّذ للمشروع، وهي (مجموعة بن

لادن) السعودية. ومع أن الشركة ذاتها ستواصل إدارة المشروع، إلا أن جميع الأرباح سوف تذهب إلى وقف الملك (عبد العزيز) للسنوات الخمس والعشرين القادمة. حيث سيتم استخدام الأرباح للمحافظة على المجمع نفسه وغيره من المواقع الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة. بعد ذلك، سوف يكون (لمجموعة بن لادن) حقوق الأغلبية من الأرباح بعد انتهاء فترة ٢٥ عامًا. وشركة (بن لادن) هي في الوقت ذاته المقاول للعديد من مشاريع التنمية في مكة المكرمة، لها علاقة خاصة مع الأسرة الحاكمة. حيث إن أبناء مؤسسي المملكة السعودية ومُلاك شركة البناء البارزة «بن لادن» متداخلين في علاقة متشابكة تحكمها الثقة المتبادلة بين كلا الجانبين مع علم كامل بالخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها (بشير ٢٠١٠). وهذا هو أحد العوامل الجوهرية التي أسهمت في صياغة رؤية الحداثة التي تتخلل الخطط الحضرية والسياسات الثقافية لمكة المكرمة. والتي تكشف عن نوع جديد من الحضرية المتعولمة المفرطة والمذهلة التي اتخذت من مكة المكرمة مركزها ومسرح أحداثها.

المثير للتساؤل أن المشروعات الجديدة تحتفي بالطبقية في أعلى صورها، فالمدينة المقدسة ستحوي تناقضين طبقيين أساسيين. طبقة ثرية محظوظة تنعم بالإقامة في أبراج فندقية وسكنية خيالية المستوى التي تحيط بالحرم إحاطة جدارية، بينما تُدفَع الطبقة الفقيرة، وأحيانًا بكل قسوة إلى الحدود الخارجية والأطراف. وستتمتع هذه الطبقة الثرية بإطلالة من أعلى، وهم في أجنحتهم الفاخرة، على المشهد أسفلهم، الذي يرون فيه زحام الطبقة الأخرى دون أن يضطروا للاحتكاك معهم. وبطبيعة الحال فإن الطبقة الفقيرة والمتوسطة سيستمر دفعها المباشر أو غير المباشر إلى خارج نطاق المدينة أو بالأحرى خارج الأسوار الجديدة حول الحرم الشريف التي تكوِّنها الأبراج الشاهقة الفاخرة. وهنا يستمر عنقاوي في نقده الجريء واصفًا ما يحدث بأنه عملية «تطهير» لمكة من أهل مكة.

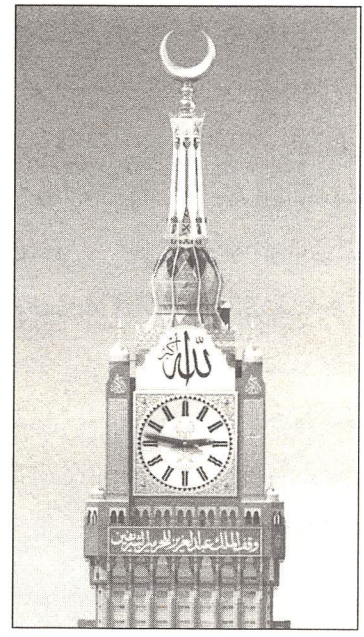

علي اليمين برج ساعة بج بن الشهير وعلى اليسار النسخة المكبرة ستة مرات على برج الساعة بأبراج البيت القافزة على الحرم المكي. مباشرة على الحافة الجنوبية للحرم المكي، أقدس بقعة في العالم للمسلمين، نسخة فجة من ساعة بيج بن الشهيرة في مدينة لندن تم بناؤها لتسمى برج ساعة مكة الملكي. الأكثر سذاجة أن تسوق الفكرة بأننا نسعى كمسلمين لتحويل التوقيت العالمي من جرينتش إلى مكة. نقول هذا في الوقت التي تغير الدول العربية توقيتاتها وإجازاتها الأسبوعية للتوافق مع إيقاع الحياة المالية ومواعيد فتح البورصات في عواصم الغرب وخاصة لندن وباريس ونيويورك.

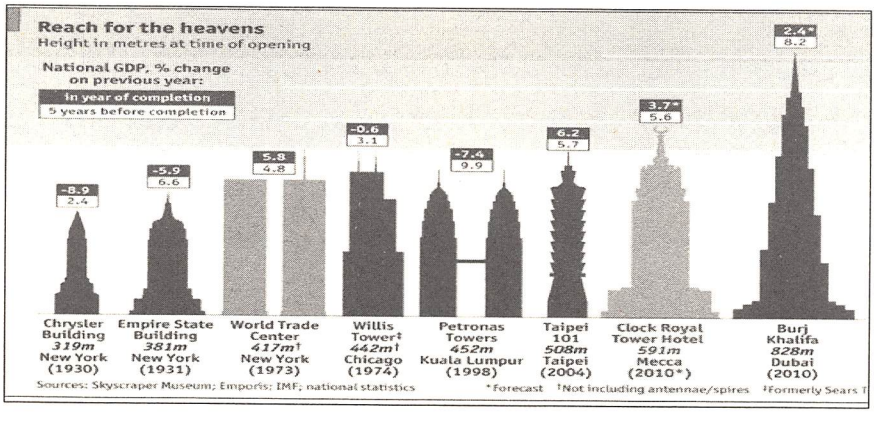

أبراج البيت الأسطورية على حافة الحرم المكي تحقق لقب ثاني أطول برج في العالم بعد برج خليفة بمدينة دبي بارتفاع حوالي ٦٠٠ متر بينما ارتفاع الكعبة ١٤ مترا فقط.

معنى احترام الكعبة وكرامتها وقدسيتها وثقافتها

«تتميز كل المشروعات المستقبلية في مكة بالتزامها بالطراز المعماري (مكة ستايل)» Meccan style!!!

تصريحات محافظ مكة (أسامة البار) لوكالة رويترز الإخبارية ١٠ نوفمبر ٢٠١١ .

لقد أعُيد صياغة وتشكيل قلب مكة التاريخي بصورة مروّعة يجب أن تولّد لدينا كمسلمين أولاً وكمعماريين وعمرانيين ثانيًا، أعلى درجات الرفض والمقاومة وإيقاف مأساة «لاس ڤيجاسية» مكة التي يصعب عليَّ أن أستكمل وصفها بـ «المقدسة» . فالقداسة سلوك وأفعال ورؤى وليست ألقابًا وأبيات شعر خاوية المعنى والدلالة والمضمون .

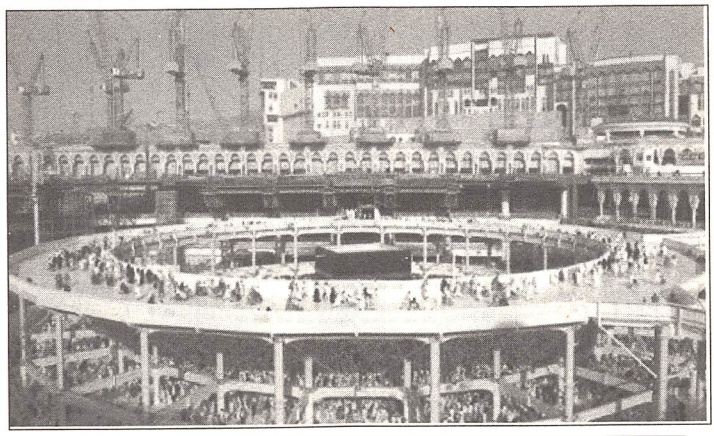

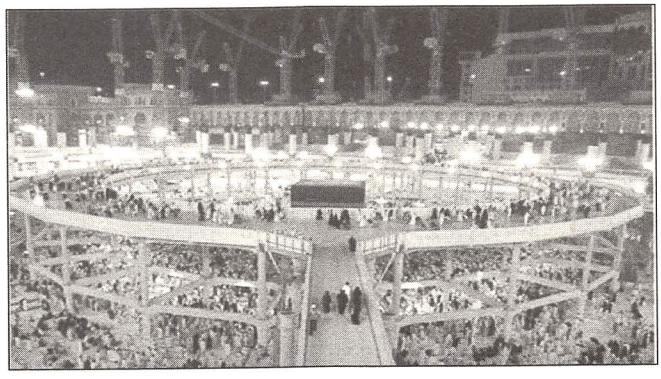

الهالة المقدسة العائمة الخانقة للكعبة الشريفة والتي ستستمر لمدة ثلاث سنوات وفقًا لتصريحات سلطات مدينة مكة المكرمة.. يستوعب ملحق الفصلين مؤقتة ١,٧٠٠ والكراسي المتحركة للساعة الواحدة. (تصوير: عرفان العلوي،٢٠١٣).

هذا العام تم عمل إضافة جديدة على بعد أمتار قليلة من الكعبة نفسها. فقد تم إنشاء مسار دائري مرتفع ١٣ متراً في الهواء بعرض ١٢ متر، يغطي بصرياً الجزء العلوي من الكعبة بل ويرتفع عليها. ومهما قيل لتبرير هذا المَمْشى المعلق، فإنه يُسهم في خنق الكعبة روحانياً ومادياً وبصرياً، بل وحجبها عن نظر الآلاف من الحجَّاج في قاعات الصلاة العلوية في طوابق المسجد. والمحزن في الأمر أن هذه المعالجة وفقاً لتصريحات المسئولين ستستمر لمدة ثلاث سنوات كتدبير مؤقت على حد تعبيرهم، وبدون تركيز على الملايين الذين تأثروا وستتأثر تجربتهم الروحانية في الحج هذا العام والعامين القادمين بسبب إجراء ينضم إلى العديد من الإجراءات التي لا تدرك قيمة المكان ومعني تجربة الحج إليه.

يبدو هنا أن الإشكالية الأكثر أهمية في تنمية وتطوير الحرم المكي تتضح وتتبلور. ويبدو أن هناك نقصاً حاداً في فهم واستيعاب أن هذا النطاق ليس بالقطع كأي نطاق تنموي آخر في العالم. فالإخفاق الحقيقي الذي يمكن رصده بوضوح تعكسه كلمات محافظ مكة، هو النظرة السطحية لهذا المكان الفريد وعدم إدراك قداسته وروحانيته وثقافته الإنسانية المتمايزة. ناقش الباحث فقيه (٢٠١٠)، تأصيل الطابع المعماري المكي في عمارتها الحديثة، وطرح تساؤلات عن كيفية صياغة بيئة معمارية عمرانية للمدينة المقدسة لها أصالة الماضي ومعطيات ومقومات المستقبل. فمع اكتشاف البترول بكميات تجارية تعرضت المملكة لطفرة معمارية وعمرانية غير مسبوقة، وكان معها التغيرات السريعة في التكوين المعماري والعمراني حيث جُلبت التقنية العالية والعمالة الأجنبية والأفكار المعمارية الحديثة بأشكالها وأنماطها المختَلفة، ونُفِّذت المشروعات العملاقة بالمملكة دون مراعاة لظروف المجتمع وأنماط حياته. وتعرض التراث العمراني في المملكة وخاصة في مكة إلى النسيان الإهمال، وأوضح الباحث أن مكة المكرمة تعرضت لنفس الموجات، وتم تجاهل التراث الحضاري لها على حساب توسعة المسجد الحرام. وكان لظهور الحاجة إلى استقبال الأعداد الكبيرة من الحجاج والمعتمرين أن تم اللجوء إلى هدم أماكن بأكملها، فاندثرت بذلك ملامح كثيرة، ولم تترك سرعة التطور المعماري فرصة للملامح المعمارية والعمرانية الجديرة بالحفاظ والصيانة، والتي تعكس التراث الحضاري والتاريخي العريق.

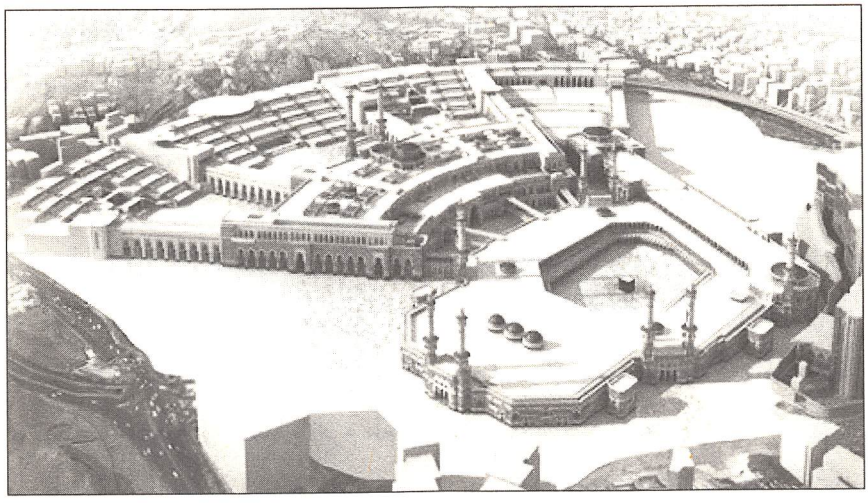

مشروع توسعة المسجد الذي تتجاوز تكلفته ٢١ بليون دولار أمريكي، سيزيد القدرة على استيعاب المصلين إلى أكثر من الضعف بإجمالي مليون ومائتين ألف مصل. تأتي التوسعة في إطار مخططات تطوير مكة ٢٠٢٠ التي ستدفع بالمجتمع المحلي بعيداً تاركًا مكانه لمزيد من الفنادق والمطاعم والكافيتريات والمجمعات التجارية. (الصورة: مجموعة بن لادن السعودية).

ومن الحتمي هنا إدراك أن ما هو مقبول في لاس ڤيجاس لا يمكن قبوله في كعبة المسلمين، ولكن التشابه كان نتيجة حتمية لإسقاط قيمة المكان وروحه وغياب الرؤية الكاشفة للفارق ما بين المقدس الروحاني والمدنس المادي. الكعبة هي مقصد الحجَّاح لشفاء أرواحهم وتأدية الفريضة الكبرى من فرائض الإسلام الخمس. هي فريضة وحيدة أخبرنا الله أن من استطاع إليها سبيلاً فقط هو من يجب عليه تأديتها، وهو ما يوضح جليًا حجم المعاناة والمشقة. الحج في فلسفته رحلة، والشقاء النسبي للوصول إلى منتهى هذه الرحلة المقدسة، هو في حد ذاته جزء من الإعداد البدني والروحاني للحج. عندما نسينا أو تناسينا هذه الركائز الفلسفية للحج عانت العمارة والعمران حول الكعبة أشد معاناة. لقد هدمنا البسيط والمتواضع والفطري والأثري والتاريخي، وأقمنا بدلاً من هذا كله الضخم العملاق المتوحش وحاصرنا الكعبة مما جعل حجمها هو الأكثر ضآلة، بل تكاد تتلاشى كمقياس أمام طوفان المشروعات العملاقة. ولمزيد من الإحساس بقضية المقياس، نذكر أن أبراج البيت أكبر بكثير من أكبر مبنيين على الإطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية، وهما مبنى وزارة الدفاع

«البنتاجون» وفندق بالاتزو العملاق Palazzo في لاس ڤيجاس، وذلك إذا وُضِعا معًا مجتمعين في موقع مشترك.

«برج الجوار المُطِلّ على الحرم المكي الشريف حيث يتميز البرج بموقع استراتيجي قريب من ساحة باب الملك عبد العزيز في الحرم المكي، و يتألف من ٣٣ طابقًا منها ٢٢ طابقًا سكنيًا يضم ٤٦٢ وحدة سكنية و١١ طابقًا إداريًا تجاريًا، وهذا هو المشروع الثاني للشركة، والأول هو برج الصفوة المؤلَّف أيضا من ٣٣ طابقًا. برج الجوار يتميز بوجود دور للصلاة متصل بصريًا وسمعيًا بالحرم المكي الشريف».

من تصريحات (ياسر العطّاس) المدير العام لشركة رواسين الحجاز المسوِّقة للمشروع. ٢١ يناير ٢٠٠٩- جريدة الأيام

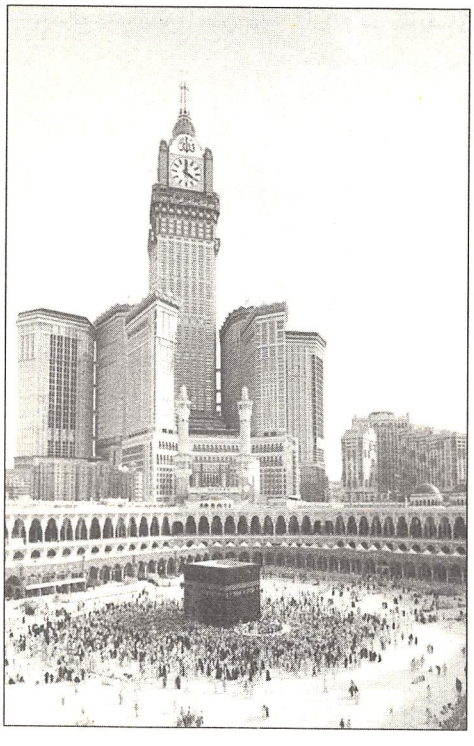

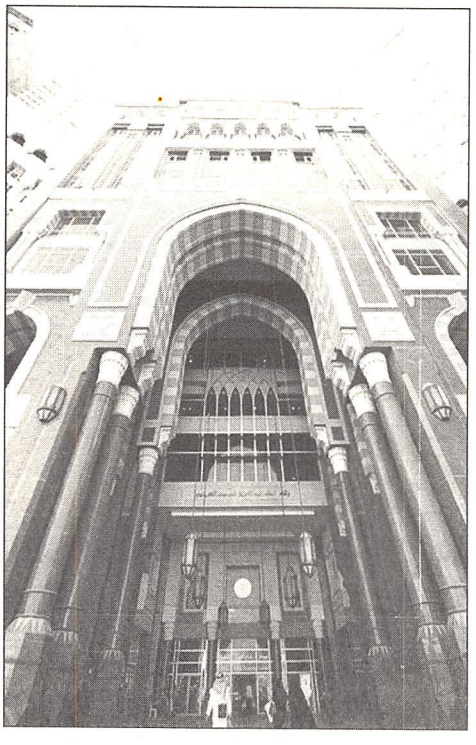

إذا لم نشعر بضالة الكعبة في هذا المشهد فيا ترى ما هي المشاعر البديلة التي يمكن أن تتولد فينا؟. وعلي اليسار مدخل أبراج البيت الذي يتجاوز في حجمه وفخامته أبواب الحرم المكي بلا استثناء.

الأكثر خطورة هي التبريرات الدينية والفتاوى المغرضة التي سهّلت عملية «لاس فيجاسية» مكة، فقد أفتى البعض بجواز اعتبار صلاتك وحدك في غرفتك المُطلَّة على الحرم كصلاة جماعة، وبالتالي لا تضطر للنزول إلى ساحة المسجد الحرام وتكبّد مشقة الاحتكاك مع جموع المسلمين. بينما الواقع أن فلسفة الحج هي تحقيق هذا البعد الجماعي والتواصل بين أبناء الأمة الإسلامية في نطاق جغرافي مقدس واحد. وعندما تكتفي بتأمل الكعبة من أعلى فتظهر لك كيانًا ضعيفًا فلا يمكن أن يحمل أو يرسل أية دلالات روحانية أو إيمانية. بل وصلت الأزمة الأخلاقية لتنمية عمران المسجد الحرام إلى أقصاها بالدعوة من عدة فنادق عملاقة محيطة بالحرم لحديثي الزواج بقضاء ليالي شهر العسل اللذيذة الممتعة في جناحك المشرف على المنظر الجميل لبيت الله الحرام؛ كعبة المسلمين (انظر صورة إحدى اللوحات الإعلانية).

لوحات إعلانية عن إمكانية التمتع بليالي شهر العسل !!، مع إطلالة على الحرم المكي الشريف والكعبة المشرفة مع وعد برحلة زواج مباركة. ويرجى ملاحظة أن العرض غير ساري في رمضان والحج لأن ١٩٥٠ ريال سعودي أو ما يقارب ٥٠٠ دولار أمريكي في الليلة لا تكفي لنيل «البركة» في أيام الشهر الفضيل (تصوير: علي عبد الرءوف).